

تمهيد

الكاتب

لم يشهد فن المسرح الغنائي العربي الحديث عطاءً بمستوى الشمولية التي استمتع بها جمهوره عبر التراث العظيم للأخوين عاصي ومنصور الرحباني ومعهما صاحبة الحضور الاستثنائي في حياة الناس السيدة نهاد حداد - فيروز، الذي ملأ الفضاء العربي وجزءاً مهماً من الفضاء العالمي حيث يعيش أبناء بلاد الشام بأجسادهم ويشدُّ العالمُ الرحبانيُّ أرواحهم إلى ضيعهم وحاتهم وجبال ووديان وشواطئ وسماوات أوطانهم الغالية وإلى أهاليهم وهموم أحبائهم محرّضاً ذكرياتٍ حفرتها الأيام والأحداث في أدمغتهم وأفئدتهم.

ليس الهدف من هذا الكتاب البحث في المدرسة الرحبانية من الوجهة الأكاديمية ولا هو إثبات عبقرية الأخوين عاصي ومنصور اللذين منحهما تراثهما هذه الصفة بلسان الملايين ممّن زينت أوقاتهم كلماتهما وأحانها وأصواتُ كلِّ من اختاراه لأداء أروع الأعمال المسرحية وأقواها تأثيراً، وفي مقدمتهم فيروز.

وليس هذا الكتاب ليضيف شيئاً على التراث الرحباني العظيم ولا هو لشرح عناصره ومفرداته، فهي ليست بحاجة إلى ذلك، إنما لتسليط الضوء على ما في هذا التراث من قيم جمالية تسمو بها المشاعر وتتألق معها الوجوه وتصفو بها النفوس وتثور القلوب محبة للوطن والعمل والسلام والتصاقاً بالطبيعة وانتخاءً لفعل الخير.

مما لا شك فيه أن حبَّ جمهور الفن الرحباني لأغاني فيروز لم تصل إلى درجته أية أغانٍ لأيِّ مطرب أو فنان. ومما لا شك فيه أن حاجة هذا الجمهور الدائمة لسماح أغاني فيروز دليلٌ ساطع على أقيمتها في التربع على عرش الأغنية العربية. هذا الواقع لا يلغي أبداً الحاجة لسماح الأغاني المسرحية في سياق العمل الدرامي الذي تشكل جزءاً منه. لقد اعتاد الجمهور الرحباني على سماع تلك الأغاني بشكل مستقل عن العمل المسرحي، ورغم الجانب الإيجابي في هذه الظاهرة المتمثل بتوسيع انتشار الأغنية الرحبانية وبسهولة نقلها من جيل إلى جيل فإننا نرى أن هناك جانباً سلبياً تمثل في حرمان الأجيال الجديدة من فرصة الاستمتاع بالأعمال المسرحية الكاملة نصاً وغناءً ولحناً، الاستمتاع الذي يغني الروح والفكر معاً.

من هنا جاءت فكرة كتاب "جماليات الإبداع الرحباني" الذي أحلّ فيه الأعمال المسرحية للأخوين عاصي ومنصور بين العامين 1960 و1977 من الناحيتين الفكرية والأدبية لافتاً الانتباه إلى ما اعتقد أن التطور المدني وعامل الزمن حالاً دون إدراك فحواء من قبل أبنائنا وأبنائهم وآمل أن يجدوا في جماليات هذا الأدب الراقي وفي فكره النيّر ومدرسته الإبداعية ما تهتّز به مشاعرهم وتسمو معه أحلامهم وتصلق بعمق تأثيره شخصياتهم كما كان الأمر مع أهاليهم عبر أربعة عقود ونيف.

وإذ يصدر الكتاب في جزأيه وطبعته الأولى بمناسبة ذكرى مرور عشرين عاماً على رحيل عاصي الرحباني فإن الأمل كبيرٌ في أن يوفر المستقبل فرصة أكبر لإثرائه وتنقيته في طبعات لاحقة وإضافة جزء ثالث يغطي الأعمال المسرحية لمنصور الرحباني في مرحلة ما بعد عاصي.

أملأ أن يستمتع بقراءة الكتاب أكبر عدد من عشاق ودارسي الأدب الرحباني ومسرحيات وأغاني الفنانة الكبيرة فيروز، أعلن أن الصدر مفتوح وواسع لتقبل الملاحظات والانتقادات التي من شأنها أن تزيد من وثوقه خطوة على طريق إحياء التراث الرحباني الإنساني الخالد.

ولا يسعني وأنا أقدم هذه الدراسة إلى الأخوين عاصي ومنصور، صاحبي الفضل الكبير في ثقافتنا وذائقتنا الفنية، إلا أن أذكر زوجتي الدكتورة نضال غريبة التي صاحبتني في رحلتي الجدية الممتعة في أرجاء عالم المسرح الرحباني الواسع والعميق. وأسجل في نفس الوقت امتناناً لصديقي مصمّم غلافي الجزأين المهندس المعماري الفنان روك سعادة الذي تجاوزت مساهمته حدّ تصميم الغلاف إلى تقديم الكثير من الملاحظات القيّمة.

شكري الخاص وامتثاني العميق للشاعر الصديق هنري زغيب الذي قدّم لي الكثير من الإرشادات العملية التي ساهمت في إخراج هذا الكتاب إلى النور.

الدكتور مفيد مسوح
أبوظبي - حزيران 2006